

تلقي القول الهيدجريّ من قبل أهل الأدب - جورج آرتير قولدسميث نموذجاً-
Receiving the Heidegger saying by writers community - Georges Arthur Goldschmidt as an example-

د. غوزي مصطفى^{*1}

¹ جامعة أوبوكر بلقايد – تلمسان – (الجزائر) ، mus.ghouzi@gmail.com

تاريخ النشر: 2022/ 05/05

تاريخ القبول: 2022/03/18

تاريخ الاستلام: 2022/01/28

ملخص:

بورود اللسان، تحضر الأشياء، فيتوارى الإبهام، تاركا المكان للإشارة والعبارة يلعبان إلى حين يُسدل الستار، فتتلاشى الأشياء، ثم يُعلن عن انتصار اللامعنى. ولأننا لم نصل بعد إلى هذا العصي، لا جرم أن نقول، أوبالأحرى أن نجعل قول الغير مرثيا. أعتقد قد نتفهم هذا العشق، الذي يرتقي فيصل إلى درجة الوله، والمتعّين في كتابات فلسفية، ونخصّ بالذكر في هذا المقام المنجز الهيدجريّ، فالفيلسوف ذهب بعيدا، مستقصيا اللفظ الألمانيّ، كاشفا لخباياه. وفي هذا السياق حيث يختبأ المعنى الفلسفيّ الهيدجريّ في طيّات الكلمة الألمانية والقادرة على، تشكيل العبارة الفلسفية؛ نتسأل، هل بمقدور الكتابة الأدبية اقتراح قراءة جديدة للمنجز الهيدجريّ؟ والحال هذه، لا مفرّ حتى يتبيّن الأمر، من تتبع الأقوال، أيّ الشواهد التي تُدلل على أنّه فعلا، هناك كتاب قد أخذوا على عاتقهم مهمة إظهار القول الهيدجريّ، إظهارا أدبيا، أعني تشكيل العبارة الفلسفية بالماهية، التّشكيل الأدبيّ، ومتى تحقق ذلك، ضاهت العبارة الأدبية شكلا، الفلسفية محتوى، العبارة الفلسفية التّقليدية، ماثلة أمام الأعين؛ قد يكون أهمها، هو أنّ التدبر بوجه عامّ ليس حكرا على الفلسفة بمعناها المعتاد.

كلمات مفتاحية: اللغة، المكان، الفعل، الكلمة، التاريخ

Abstract

When language is being present, you can nominate things, at that time vagueness retrograde,, after that, things disappear, go away following set forth a victory of the nonsense. Because you are not arrive at this recusansy knowingness you can make the say of others visible. I can understand the passion of certain German philosophers, particularly Martin Heidegger devoting to language. Heidegger go faraway, track and inspect German words, reveal with strong feeling the hidden meaning of this words. In that context, and considering that the sense in Heidegger philosophy is enfold inside German word witch its able to invent the essential philosophy expression. In that case we can ask a question if literature is able to give us new lecture regarding Heidegger philosophy? We believe that kind of lecture exist really, writings of Georges Arthur Goldschmidt are one of this kind of literature who contribute at the expansion philosophy's area,

Keywords: language. space .verb .word. history.

1. مقدمة:

تنبج العبارة الفلسفية من رحم اللغة، ولا تستقيم إلا متى امتثلت إلى مقتضيات أساسية تُسير اللفظ وتُنظّمه تنظيماً، والامتثال هذا، عامل أساسي في تشكّل المعنى وبلورته البلورة الفلسفية. والإفراج عن العبارة والإفصاح عنها، لا يتأتى إتياناً إلا باعتماد اللسان، غير أنّه لا وجود للسان جامع يكون وسيلة تحدّث البشر ويتواصلون، بل هنالك أكثر من لسان واحد ولهجة عبر العالم. ومن الألسن، اللغة الألمانية، لغة استلّمت منذ حين ليس بالقصير حاملة للعبارة الفلسفية وجالت بالفكر بعيداً، ثم أقفلت راجعة إلى الرّحم طالبة المدد، وتودّدت للأصل ورغبت في الاستزادة، وهيدجر من بين الفلاسفة الألمان الذين انجذبوا انجذاباً، فسقطوا في حبال اللفظ الألماني وظنّوا أنّه قد تمّ، فتأهّل لحمل العبارة الفلسفية، وهناك خلف التهرّ قد تقهقر اللفظ الفرنسي. فهل حقا العبارة الفلسفية الألمانية مدينة في كلّ ما ألت إليه لفردة اللفظ الألماني، خاصّة إذا ما قورن باللفظ الفرنسي؟ نفترض أنّ مشكلة مثل هذه، عندما توجه لكاتب أديب، نكون قد وفقنا في الاختيار، وهذا لا يعني البتة أن فيلسوفاً لا يمكن له أن يدلي بدلو، ولكن، نزع من أنّ الأديب تجمعه واللفظ ألفة خاصّة وعشرة حميمة. وتميّز اللفظ الألماني وقدرته على الإحاطة بالأشياء، موضوع قد تناوله الدّراسين واعتنوا به أيّما اعتناء. والأديب جورج آرثير قولدسميث واحد من هؤلاء الذين لهم علاقة تميّز بالكلمة.

2. رسوخ المفردة في القول الهيدجريّ

1.2 هيدجر واللغة الألمانية : اللغة-المكان

كتب جورج آرثير قولدسميث جملة من المقالات، هي في واقع محاضرات تتناول بالدّرس والتحليل، نظرة الفيلسوف هيدجر للغة الألمانية بوصفها وسيطاً يقل نظيره عندما يتعلّق الأمر بالتعبير عن المعنى الفلسفيّ ومقصوده. في المقال الأوّل، والذي وسمه ب: "اللغة والمكانية عند هيدجر" أقام مقارنة بين اللغة الألمانية واللغة الفرنسية، مركّزا على إبراز علاقة كلّ لغة بالمكان أو الفضاء. في المقال الثّاني، يهتمّ بالأشكال التي تطبع العبارة الفلسفية. في المقال الثّالث تناول فيه الكاتب رهان هيدجر والمتمثّل في سعيه الحثيث إلى تشكيل لغة فلسفية أكثر جذرية، سمّتها الاستعمال المطلق لأداة التعريف، وفردية الأزمنة المستخدمة والتي تأتي بمنطوق مسلّم به سلفاً من قبل هيدجر. المقال الموالي يثير فيه موقف هيدجر من اللغة الألمانية "الفريدة" واعتبارها الأولى بأن تكون المجسّدة لفعل الفلسفة، ولا لغة أخرى قادرة على الارتقاء إلى هذا المقام. في المقال الموالي يتم فيه الحديث عن الصّفاء والأصالة

المزعومين للغة الألمانية والقدر الخاص لألمانيا. في المقال الأخير يجري الحديث فيه عن مآل الفكر الألماني وقد عبّر عنه في لحظة ما هيدجر.

في هذه السّاحة، سنوقف عند المقال الأوّل باسطين أهم ما جاء فيه، ونُقدم على ذلك، وقد تسلحنا بأدوات التحليل والتّقد، مشفوعين بالحجة والدّليل.

2.2 علاقة كلّ من الألمانية والفرنسيّة بالفضاء

إذا كانت اللّغة الألمانية تعمل على توطيد ارتباطها بالمكان وتكريس هذا الرّباط، فالأمر غير ذلك بالنسبة للفرنسيّة، حيث تعمل هذه اللّغة على تلافى الارتباط بالمكان وتتحاشاه. كلّ النّحو الألمانيّ - ومن ثمّة فكر اللّغة الجواني-، بحسب الكاتب قد اصطبغ بهذا الرّابط الحسيّ، وهذا ما كان قد أكّد عليه الفيلسوف ليبنتز وللتدليل على صحّة ما يذهب إليه، يذكر الأديب أنّ هناك زهاء 500 كلمة قاعدية في هذه اللّغة قد ألّفت بمقتضى جذر واحد فقط، هو über والذي يعني "فوق"، و1000 كلمة مؤلفة بمقتضى جذر واحد فقط هو auf والذي يعني "على"... وهكذا يرى الرّائي كيف يغشى الفكر المكان، حتّى تستحيل المفاهيم كيانات تشغل حيزاً في المكان. وقد تمّ له ما أراد، فلا مانع من تقديم موقف هيدجر من هذه المسألة، [ولهذه الكيفية في التناول دلالات، من بينها أنّها مؤشراً على تفاعل الكاتب مع النّص الهيدجريّ فعلاً] وعليه، ليس مصادفة تأكيد هيدجر على مقام المكان وقيّمته وهذا نراه متحقّقاً في كتابه العمدة " الكينونة والزمان " وبوجه مخصوص في الفقرات 22 و23 و24، فعلى سبيل المثال نقرأ في الفقرة 22 - والتي جاءت بعنوان " في مكانية الّذي تحت اليد داخل العالم " - : "إذا كان المكان يُحدّد قوام العالم في معنى لا يزال علينا أن نعيّنه، فإنّه لا يمكن أن نعجب من أنّه كان علينا بعدُ، عند التّخصيص الأنطولوجي السّالف لكينونة الكائن داخل العالم، أن نلاحظ أيضاً هذا الأخير بوصفه داخل المكان" (1). ويصل به الأمر لاحقاً إلى أن يُطابق بين المكانية مع فكرة الرّايخ [تحيل هذه الكلمة في اللّغة الألمانية إلى الأرض أو الحى، مجال تدبير الشّأن العام وممارسة السّلطة من قبل الحاكم لتمتلكها آخر مطاف السّلطة النازية]، وذلك يوم 23 أكتوبر من سنة 1933 وأمام جموع من البطالين مخاطباً إياهم، مفصّحاً عن أسفه لمعاناة زهاء 18 مليون ألماني، يعيشون كرها خارج الوطن الأم. فالأراضي الّتي يسكن فيها هؤلاء بحسب تصور هيدجر، مرتبطة ارتباطاً عضويّاً بالفضاء الألمانيّ، فضاء يعتبره الفيلسوف قاعدة لفكره، وبحسب تصور الأديب، فإنّ الرّابط المكانيّ هو المحدّد للمعنى في اللّغة الألمانية بصفة عامّة وللغة المستخدمة من قبل هيدجر، "فمجموع الأفعال في هذه اللغة تُؤلف على أساس تنظيم مكاني، ويصعب على المرء إيجاد جملة وقد خلت من بادئة أو سابقة " (2) والبادئة أو السابقة - préfixe - " وهي الرّائدة أو اللاصقة الّتي تضاف إلى أوّل جذر الكلمة" (3). لن يكون ممكناً إدراك السّمة المكانية الّتي تطبع الكلمات الألمانيّة، وتتفرّد بها بالمقارنة بالكلمات الفرنسيّة، إلا بعد مضي وقت وقد استغرقنا التّدبر، حتّى يتراءى للرّائي الخطوة الّذي يحوز عليها المكان، كلما تعلّق

باللفظ الألماني. وللتدليل على صحة هذا الإدعاء، يُورد الأديب مثالا دالا، فإن كان الفعلان wiederkehren – فيدازين- و zurückkommen - زوغنكومن- يعنيان العودة أوالرجوع، إلا أنّ الفعل الأول يحيل إلى عودة في الزّمان، بينما الفعل الثّاني يحيل إلى عودة في المكان.

والأديب وهوبيسط الموضوع المثار، يفعل ذلك في سياق تاريخي قد عيّنه لفظا، سياق تحدثم فيه صراعات حادة عاشتها أوروبا، أفضت إلى حرب عالمية ثانية، ساهمت في الوصول إليها بقدر معين أفكار غاية في التطرف والعدائية، تبنّاها الحزب الاشتراكي الوطني بزعامة أدولف هتلر، وعمل على نشرها وإذاعتها في أوساط الجماهير الألمانية بعض النّخب الثّقافية الألمانية تماهت مع الطّرح النّازي. العوامل الموضوعيّة التي كانت خلف هذه الكارثة العظمى التي عاشتها أوروبا قد تطرّق إليها بنوع من الإسهاب المفكر بيار بورديو في ثنايا مؤلفه الذي عالج فيه الأنطولوجيا السّياسيّة عند مارتن هيدجر، وفي مسعاه لتبيان وتحديد معالم الانطولوجيا السّياسية عند مارتن هيدجر إنّما فعل ذلك، وقد تبنى سبيل العالم الملاحظ المؤمن بأنّ الفعل الإنسانيّ مهما بلغ شأنه في التجريد هوفي نهاية الأمر، فعل ينجز ويتم في مجال اجتماعي متشابك العلاقات، تتجاذب فيه المصالح تارة وتارة تتنافر، ضمن حركة تاريخ اجتماعي ووفق رؤية ثقافيّة ما. وهذا ما يعمل على تأكيده الكاتب جورج قولدسميث وقد اتّخذ في سبيل تحقيق ذلك سبيلا تعبيريا خاصّا به يميّزه عن الوجهة التي سلكها بورديو. فالكاتب الصحفي يرى أن هيدجر قد تبنى رؤية في سياق حقبة تاريخيّة مفصليّة، حقبة اتّسمت بنوع من الإرباك والحيرة والتّيّه التي عانت منها الجماعة الألمانيّة عقب الحرب العالميّة الأولى وما ينجر عنها من تفشي لمشاعر سلبية تغلّغت في أعماق الرّوح وأصابته في مقتل.

3. انبثاق " الكينونة والزّمان "

1.3 الضّيق والانقباض

يمضي الفكر وقد تجلّى في كتاب هيدجر العمدة " الكينونة والزّمان " متحرّكا بمقتضى حالة من الانقباض والضّيق وقد أصاب الجسد بوصفه مكانا أوبوتقة يلتئم بداخلها الكثير من الألمان الذين نالت منهم معاناة جمّة، ما نالت، ضمّتهم في أفق قد نسجت خيوطه من عار وحرمان عقب اضمحلال الإمبراطورية الألمانيّة ... في هذه الأجواء التي أقل ما يقال عنها أنّها أجواء كئيبة كريمة، يولد " الكينونة والزّمان " بصفته التّجلي الفكري الأكثر انسجاميّة وجذرية، والمعبر بالمقال والمشير بالحوال للتمرد الألمانيّ على ما يسمى بالميتافيزيقا الغربيّة. كتاب هيدجر العمدة، فاتحة للغة جديدة، وأثر فكريّ نسيج وحده، ألفته الأذن الألمانيّة واستساغته بعد مضي حين من الزّمن، فأشادت به نظير فرادته، وما يميّز هذه اللّغة أنّها من نوع السّهل الممتنع، عادية، تداولها الألسن، تُعبّر عن روح العصر، ولكنها لغة جديدة غير معهودة، وضعية مفارقة هي التي تضعنا فيها هذه اللّغة، ما فرض على الأديب التّساؤل عن خاصّة اللّغة الهيدجرية، المتامية مع اللّغة المستعملة من قبل الرّايخ الثّالث. وتأكيدا على هذا المنحى الخطير يحيلنا الأديب، إلى ما ترشّح عن أعمال فكرية، تناولت بالتّحليل والدّرس اللّغة الألمانيّة، تحديدا لغة

الرائخ الثالث، أنجزت من قبل علماء أمثال " فيكتور كلامبار " Victor Klemperer والذي يعرض في كتابه " لغة الرائخ الثالث ... " للأثر السلبيّ للغة واصفا إياها " بالملوث، بالكلمات - وإن اعتبرت مواد للاستهلاك - إن أضيف لها جرعات سم صغيرة، ثم تناولها المرء، من دون أخذ الحيطة، اعتقاداً أن لا تأثير ينجر عن ذلك، فإنّه وبعد مرور زمان يتبيّن أثر الجرعات السامة جلياً"⁽⁴⁾. وحتى يهب كلامبار لدعواه قوّة إقناع كافية، قام بدراسة وتحليل خطب إذاعية وصحف وكتب علميّة وأخرى أدبية أوتربوية وحوارات، قصد إظهار ما مدى تغلغل الفكر الشموليّ وتسريّه إلى اللّغة الألمانية اليومية، وانطباعه في أعماق كلّ فرد. فالرائخ الثالث في نظر العالم كلامبار قد نحت القليل من الكلمات واستجلب القليل منها، ولكن الأخطر من هذا وذاك قام بتغيير دلالات الكلمات ومن تردداتها قاصداً من ذلك تحويل اللّغة إلى أداة إشهار ونشر الأفكار العنصرية. غير أنّه ينبغي القول، وبالرغم من ما ذكر أعلاه، فإنّ هيدجر قد تماهى مع وضعيته داخل اللّغة، إلى درجة جعلها خاصّته. الجالب إلى الانتباه أنّه وابتداءً من سنة 1927، وتزامناً مع صدور كتابه العمدة الكينونة والزمان، اتّسمت اللّغة المعتمدة، بالاندفاع صوب الأمام وخلق صيغ فعلية رائعة. لينتقل في غضون الحرب العالمية الثانية ومن خلال محاضراته - Vorlesungen - إلى لغة غنائية. وابتداءً من سنة 1950 تستحيل لغة هيدجر إلى لغة حيادية، لا مبالية، وأحياناً سطحيّة في بعض النصوص. والسؤال الذي يطرح ما سرّ هذا التغيّر في الأسلوب وهذا التحوّل في أسلوب الكتابة، هل مردّه أسباب موضوعيّة خارجية قد تكون سياسية في المقام الأول مرّت بها بلاده، أم الأمر أعمق من ذلك، لصيق قد ارتبط بطبيعة الكتابة الفلسفيّة الهيدجرية وتطورها. وكما هو ظاهر فالكتابة الهيدجرية قد عاشت أحوال ثلاث، الحالة الأولى أدعوها بالحالة الغازية ذات الأفق المفتوح، الحالة الثانية هي حالة الزهو والانتشاء والاعتداد بالنفس. والحالة الأخيرة هي حالة التوّاري والانعزال والتّجافي. يذهب الفيلسوف جون غروندان Jean Grondin بالاتّجاه نفسه الذي ذهب إليه الكاتب قولدسميث بخصوص مراحل التي مرّت بها كتابات هيدجر، وإن كان غروندان يتحدث عن مرحلتين لا ثلاث، فهو يقول في مقدمة كتاب خصّصه لهذه المسألة تحديداً: " القارئ الذي يقفز من " الكينونة والزمان " إلى فلسفة هيدجر المتأخّرة يدرك أنّه بصدد الولوج إلى عالم آخر من الخطاب، فكلّ شيء قد طرأ عليه تغيير واضح على مستوى الكتابة لما بعد السنة 1930 لا من حيث الشّكل وحسب، إنّما أيضاً من حيث المحتوى. فمن الظّاهر أن فلسفة هيدجر قد لحق بها تحول أو انعطاف حاد .. فعلى مستوى الشّكل غيّر هيدجر أسلوبه، توارت فيه النّسقية التي يحفل بها مؤلفه " الكينونة والزمان " وأيضاً صار بالإمكان مشاهدة مفردات المعجم الفلسفيّ الترسنديّ المتأتّي من الكانطيّة الجديدة أو عن الفينومينولوجية، ولا مكث مستمسكاً بتلك الطّريقة التي طبعت محاضراته، مستعيضاً عنها بخطاب هو أقرب ليكون خطاباً شاعرياً منه إلى كونه خطاباً فلسفياً"⁽⁵⁾

علاوة على ذلك، فإنّ أسلوب الكتابة الذي طبع كتابات الفيلسوف، بعد صدور كتابه العمدة، الاستغناء عن التّقليد والمحاكاة. فعوّض وفرة التّحليلات التي يمتاز بها الكتاب، يُشرّع الباب إلى الدّروس

والمحاضرات والمقالات والرسائل والحوارات بل يصل الأمر بالفيلسوف إلى نظم القصائد الشعرية. إن التفسخ الملاحظ على القول الفلسفي والذي له امتدادات أو قل إرهابات في المآثر النيتشوية، قد تمكّن مما تبقى من الفكر النسقي الميتافيزيقي. لم يتوقف التحول في نظر جون غروندان عند هذا الحد أو الدرجة؛ بل أمسى هيدجر يولي الأهمية للشعر والشعراء أكثر من ذي قبل، وهذا ما يراه المرء وقد تعيّن في خطابه المصوغ الصياغة الشاعرية، حتّى لا نقول العرفانية أو الصوفية. غير أنّ الانقلاب الأكثر أهمية في رأي غروندان يطال محتوى فلسفة هيدجر فيبدو الفيلسوف قد ضرب عرض الحائط الإشكالية التي تتناول بالتحليل الدّازين والتي تعتبر بوابة لكل أنطولوجية جذرية، والمنطلقة من الفلسفة. ومذّاك لا مجال للتساؤل عن فينومينولوجيا، وأنطولوجيا جذرية أو هيرومينوطيقا.. يبدو أنّ الدّازين والوجود لم يصيرا من اهتمامات هيدجر الأولى؛ حتّى بات من الممكن الحديث عن هيدجر 1 وهيدجر 2، كما أكد ذلك ريتشاردسون Richardson [وليام جاي ريتشاردسون فيلسوف أمريكي من مواليد 02 نوفمبر 1920، توفي يوم 10 ديسمبر 2016، من مؤلفاته " هيدجر من الفينومينولوجيا إلى التدبر]..

2.3 . امتياز اللغة الألمانية وقدرتها على تأليف العبارة الفلسفية

مجازاة لقناعة هيدجر وتعلّقه أووليه باللغة الألمانية، يتوقف الأديب قولدسميث عند الرأي ذائع الصّيت والذي يجعل من اللغة الألمانية، لغة الفلاسفة بامتياز، فمن شأن هذه اللغة إجلاء الحقيقة وإظهارها بثوب لغويّ قد حاز على جميع مواصفات الثّوب الجميل الأسر، والذي يصعب على المرء الانفكاك من جاذبيته الأخاذة، وحتّى يهب الأديب كلّ القوّة اللازمة لإقناع القارئ، يذكر أنّه ومنذ القرن السادس عشر الميلاديّ، نبّه مفكرون ألمان أمثال كونراد سلتيس وإريش فان هيتين ومارتن لوتر، المطالبة بالتخلي عن اللغة اللاتينية.

يتمكّن من اللغة الألمانية فكر يتّجه صوب التّسيّد، فالى غاية القرن التاسع عشر كان يمنع على شخص من مقام وضعيّة التّحدث مع شخص من عليّة القوم إلّا من خلال شخص وسيط، وهذا الوضع الذي ساد قديما فعل فعلته حيث كان له التأثير الجليّ علي بنية الإعراب والتّفكير. ما أدّى إلى نتائج سياسيّة، قد نُجمِلها في فكرة الخضوع والانصياع الظّاهرة الظّهور البارز في التركيبة اللّسانيّة، ولكن وبالرغم من هذا لم يمنع في نظر الكاتب انتشار الصّحافة والتّطور المتتالي للأشكال التّعبيرية، ابتداء من النّصف الثّاني من القرن الثّامن عشر، القرن الذي شهد ميلاد فكرة الأنوار وبزوغ فلسفة باللغة الألمانية مع الفيلسوف كريستيان وولف، وابتداء من هذا الزّمن امتزج الفكر بالجرمانية، باعتبارها تأكيد ماهويّ على تملّك الحقيقة عند فيخته ومفكرين ألمان آخرين، حتّى وإن

كان الأديب الشهير غوته من الممتعضين المتأسفين إلى ما ألت إليه الأمور. وبغية ترسيخ هذه الفريدة قام بعض المفكرين بوضع موازنة أوبالآخرى مقابلة بين اللغة الألمانية بوصفها وسيطاً حاملاً للحقيقة واللغة الفرنسية الذي لم تحض بالشرف الرفيع، شرف حمل الحقيقة.

ترتقي اللغة الألمانية مع أعلام بارزين أمثال فيليب موريتز وغوته إلى مستويات غاية في الرفعة والعلو وكمال العبارة والتي لم يُعرف لها نظير في الأدب الألماني من ذي قبل، ولبيان ذلك يأخذ الكاتب تجربة غوته في الكتابة، حيث يرى أنّ أهمية الروائي تتأتى ابتداءً من موقعه اللساني؛ يقول الدكتور عبد الغفار مكاوي مقدماً عمل غوته الموسوم "تاسو": "لم يكن جوته من الشعراء الذين تخطر لهم الفكرة فيسرعون كالمحمومين بتدوينها على الورق .. لقد كانت تأتيه الفكرة فيبدأ بكتابتها، ثم يدركه التعب أوبناله السأم أوتشغله مشاغل الحياة، فيتركها ناقصة. وقد يعود إليها في خلال أيام أو أشهر أوسنين فيضيف إليها أويعدل فيها أويعيد صياغتها في وزن جديد أويكتبها شعراً، بعد أن بدأها نثراً" (6).

يسود في ألمانيا اعتقاد مفاده، أنّ اللغة الألمانية قد تطورت ونمت من تلقاء نفسها، لقدرتها على نحت مجموع المعجم فقط من بعض جذور ذات الطابع الحسي، ولبيان ذلك يقترح الكاتب جملة من الألفاظ للتدليل على ذلك كاللفظة فلسفة وعلم النفس والأوكسجين الخ وعلى وجه أعم وبطريقة ما كلّ الألفاظ تعود في تشكيلها إلى المكانية. في قاموس فرويد، كلمة علاقة أونسبة لا تعني شيء معين في اللغة الفرنسية إلا إذا استنجدنا باللغة اللاتينية، فإن اللفظة ذاتها - علاقة - تصير في اللغة الألمانية موضوعاً تمثلياً محدّد ف Zusammenhang والتي تحيل إلى الأشياء المتشابكة فيما بينها. أولفظة Beziehung والتي تحيل إلى الذي يسحب نحواً والذي يجذب نحو.

كتاب هيجل "فينومينولوجيا الروح" من بين أهم الكتب الفلسفية التي كتبت باللغة الألمانية والذي وصل فيه صاحبه إلى مستويات عالية من التجريد والتحليل الفكري، يقول الدكتور ناجي العونلي مترجم الكتاب إلى اللغة العربية: "هذا المصنف النسقي الأول لهيغل من يفاع نظري ونضارة فلسفية يجعلان منه استثناء فلسفياً يخرج على ما سيؤول إليه النسق الهيجلي في طوري هالبارغ وبرلين من انغلاق صوري حين ستمسي الفلسفة شأنًا تعليمياً صرفاً. إنّ فنومينولوجيا الروح عبارة تفلسف قلق ومتحير حدّ النكول، لكنه نكول لا يتنافى مع لطافة المفهوم وجادة العلم، بل يجعل المفهوم على سيلانيته Die flüßigkeit والعلم على مرانة Die Plastizität ندر أن يكون لهما نظير في ما سيلحق من أطوار في ربوفلسفة هيغل نفسه مع اكتمال النسق في الاحتفاظ هيغل، فنومينولوجيا الروح" (7)؛ غير أن هذا لا يعني أنّ مادته اللغوية أغفلت وتحاشت التمثيل المكاني أوالفضائي، فالكثير من صفحات الكتاب تحفل بمركبات أفعال : verstehen أي فهم أواufheben وتدلل على الالتقاط والرفع .. بالإضافة إلى هذا، وتعزيزاً لما تقدّم أعلاه، فإنّ الجزء الأول من الكتاب هذا، يفتح بعبارة "الإيقان

الحسيّ" والتي هي معرفة الكائن المباشر للشيء. والإيقان الحسيّ معرفة مباشرة بمعزل عن كلّ تدبر أو تفكر تفلسفيّ، وفي هذا السياق يقول هيجل: "الروح عندما تكون حاسة أومدركة إدراكا حسيّا، فإنّها تجد موضوعها في شيء حسيّ، وعندما تتخيّل تجد موضوعها في صورة أوتمثّل وعندما تريد تجد موضوعها في هدف أو غاية. لكن في مقابل هذه الأشكال من وجود الروح أو وجود موضوعاتها، مع أنّها متميّزة عنها، نجد أنّ على الروح أن تشيع كذلك حياتها الدّاخلية العليا العميقة وهي الفكر، وأعمق ما في الدّات هو الفكر" ⁽⁸⁾ وكانط يلحق بالإنسان محمول الوقوف das stehen. واشتهر عن المصلح الديني لوثر مارتن قوله العبارة "ها أنا ذا أمامكم واقف كي أخطبكم"، على القارئ الأجنبيّ للغة الألمانية أنّ تستوقفه لفظة التّوقف لتعيينها المكانيّ، تعيّن في نظر الكاتب هومظهر رمزيّ. يخلص الكاتب إلى أنّ الفلسفة الألمانيّة تعود في أصلها إلى جذر وثني اعتقادا وإلى بعد بيئيّ، تحديدا غايي. وبالعودة إلى نصّ من النّصوص الأساسيّة للعالم النّفسانيّ فرويد والموسوم بـ: "الأنا والهو" يحاول الكاتب إبراز الجانبي الجنساني في معجم اللّغة الألمانيّة، ولن يجد خير ممثل للتّبيان من فرويد، فعندما يتحدث هذا الأخير عن الأنا فإنّه يفعل ذلك في لحظة من اللحظات مرفقا به فصّ سمعيّ hörkappe على أحد جانبيه؛ يقول فرويد: " .. وقد نضيف إلى قولنا السّابق، أنّه يوجد في الأنا فصّ سمعيّ، وهو يوجد على أحد الجانبين فقط كما هو معروف من تشريح المخ .. ويمكن أن نقول إنّّه يبدو على الأنا في وضع مائل" ⁽⁹⁾، كما يلاحظ فإنّ فرويد، حتّى وإن جاء حديثه عن مفهوم الأنا، ذي الطّابع المجرّد، فقد جاء وقد تحلّى بعبارات حسيّة. يطغى على التشكّل المكاني في اللّغة الفلسفيّة على الدّوام التّبرة الصّوتية، والألفاظ مثل tragweit - تركفايته - أي المدى والقدر Rückgang - روكان - أي الرجوع والعودة بحسب الكاتب، ولكن تعني كذلك الانخفاض أو الهبوط والتّراجع، والعبارة fortschreitende Ausarbeitung الواردة في الكينونة والزّمان والتي تفيد التّهيئة المتنامية.. كلّ أهميّة ومدى فكر هيدجر يأتي في جزء منه من هذا التشكّل الفضائيّ القوي.

4- التّشكّل المكانيّ في اللّغة الفلسفيّة

1.4 البعد البروتستانتّي في تشكّل اللّسان الألمانيّ

رُكّب اللّسان الألمانيّ تركيبا قبل أن يصير لغة يتكلّم به، بمقتضى براديغم دينيّ. والتّلفظ المعاصر لهذا اللّسان قد صدر عن التّقاليد الدّينية البروتستانتية التي سهر على إرسائها المصلح الديني مارتن لوثر، ومن خصائص هذا اللّسان أنّ جلّ حروفه، حروف ناطقة لا صماء. أمّا إسهام مارتن لوثر فيرجع بالأساس إلى قيامه بتنظيم المعجم اللغوي؛ بالإضافة إلى أنّه المبتكر للكثير من صيغ الفعلية الكلاسيكية، وشواهد كثيرة تعزز هذا الطّرح من بينها أنّ لفظة Verzweiflung - فاتزفايفلون - والتي تعني اليأس والتّشاؤم، ذات المنشأ الدّينيّ، والمركبة من zweifel أي شك و ver والتي لها أكثر من دلالة فتعني سيء أو افتقاد، ضياع أو منع، حدّ، ومن ung والتي تحيل إلى التّكوين والفعل، ما يجعلنا نخلص إلى أنّ حالة الشكّ تفضي بالمرء إلى اليأس.

أما ما تعلق بالنحو الألماني واختلافه عن النحو الفرنسي، فالاختلاف ظاهرة ملاحظة، أكان الأمر متعلقاً بتشكيل الوحدات الفعلية المبنية على اعتماد البوادي أو السوابق واللواحق واستعمالهما، أو بطبيعة الأفعال وقدرتها على أن تتركب مع معظم البوادي، وإمكانية إضافتها لأي اسم وجعل من صيغة مصدرية وصيغة ماض محوالة إلى حاضر اسماً عاماً، نعتاً، أفعلاً جديداً، ومن الممكن تشكيل أي اسم من عدد من اللواحق: "اللاحقة هي الوحدة الصرفية التي تزداد في آخر الكلمة لتكوين كلمة أخرى" (10).

مجموع النسق الأدواتي، وهونسق - في قواعد اللغة الفرنسية - يُستهل بحرف [في اللغة العربية كل حرف له قيمة وكل حركة لها هدف خاص: "الحروف كلها مبنية، ويقال لها حروف المعاني، كما يقال لحروف الهجاء: حروف المباني، وتنقسم الحروف إلى عاملة كإن وأخواتها. وغير عاملة كأحرف الجواب. وتنقسم أيضاً إلى مختصة بالأسماء كحروف الجر، ومختصة بالأفعال كحروف الجزم، ومشاركة بينهما كما ولا النافيتين والواووالفاء العاطفتين" (11)] دال على ظرف زمن أو مكان، والذي يعتبر نواة الجملة متبوع حيناً بجملة اسمية وحيناً آخر بجملة فعلية. يمكن تمثيله بمكعب يحوي كل اللغة الألمانية وكذا الأساليب التعبيرية مثل durch - دوغش - والتي تعني بواسطة أو من خلال an - أن - والتي قد تحيل إلى: إلى أعلى أو في أومع .. أساليب تنتظم بسببها حالة المفعولية غير المباشرة والتي تعني: "حالة الاسم الذي يتعدى إليه الفعل بواسطة حرف جر نحو: أمسكت بالقلم، بدلاً أمسكت القلم وحالة التّصب والتي تعني: "حالة للاسم في اللغات المعربة حيث يكون الاسم فيها تكملة، مثل المفاعيل، وحالة الفعل المضارع في اللغة العربية عندما يكون الفعل مسبقاً بأداة من أدوات التّصب" (12).

وينبغي الإشارة بأن الإعراب الألماني يأخذ بقواعد الإعراب اللاتيني. تتفوق اللغة الألمانية على اللغة الفرنسية، فالألمانية أكثر دقة من الفرنسية بشأن مثلاً تسمية القطع المؤلفة للسيارة، ولا يقتصر التدقيق والتحديد على عالم الميكانيكا والتقنية، بل يتعداه إلى العالم الطبيعي، فقوس قزح في الألمانية يسمى قوس مطر، وهذا يبرز لنا مرة أخرى وليست الأخيرة البعد الحسي الذي تتحلى به هذه اللغة، ثم لا يتوقف التفوق عند هذا المجال أذاك، بل يتجاوزهما إلى تعيينات أخرى فبالنسبة مثلاً لظرفي المكان hin و her لا وجود لمقابلهما في اللغة الفرنسية، فالظرف her يعبر عن الحركة إلى الأمام، بينما الظرف الثاني يعبر عن حركة الابتعاد، فإن قلت على سبيل المثال: "ينزل السلالم"، فإنني أعين في الوقت نفسه، بأنني موجود - أنا صاحب القول - في الأسفل: erläuft die Treppe herunter - إن قلت: erläuft die Treppe hinunter - لو فت دي تريب هارنتار - وإن قلت: vor التي تعني أمام تُعين الحركة إلى الأمام، بينما nach التي تفيد الإتيان، ومن السابقتين هاتين يتم تشكيل المئات من الأفعال، تكون دلالة المكانية قد تعينت بوضوح ودقة، وهذا ما هو غير ملاحظ في اللغة الفرنسية، فالتعيينات المكانية في اللغة الفرنسية أقل دقة ووضوح إذا ما قورنت بالتعيينات المكانية في اللغة الألمانية، حيث يكون من الصّعب على المرء التّيه في المكان نظراً لدقة الظّروف المكانية في هذه اللغة. والأمر يصدق أيضاً بالنسبة للفظه herum - هاروم - والتي تعني

حركة حول، يُشكّل منها عشرات الأفعال، ولفظة um والتي تعني على، بدورها هي أيضا تُشكّل الكثير من الأفعال؛ ومع هذه اللفظة يبتكر هيدجر الصيغة الفعلية das umhafte والتي تعني المحيط به، يقول هيدجر وتحديدا في الفصل الثالث من كتاب الكينونة والزمان وفي عنصر ج الموسوم ب: "المحيط das umhafte في العالم – المحيط وفي مكانية الدّازين-: "ضمن سياق الارتسام الأوّل للكينونة .. كان ينبغي للدّازين أن يُحدّد من طريقة ما من الكينونة في المكان، نحن نسّمها الدّاخلية. ذلك يعني: أن كائنا هوذاته متمدّد هومحتوى من قبل الحدود والمتمدّدة لشيء متمدّد. إنّ الكائن الذي في- الداخل والذي يحوي كلاهما قائمان في المكان" (13) ويعدّ إسهام هيدجر في نحت الكلمات محاولة في نظر الكاتب لجعل الكلمات تبدو وكأنها أشياء ترى بأَمّ العين، وتوصيفها باتخاذ صيغ فعلية على أنها ماهيتها. وهذا الذي لا نجده في اللغة الفرنسيّة، لا إفصاح وبيان مباشر للواقع، ولا إحاطة بدقائق الأشياء ومن ثمة لا شفافية على عكس اللغة الألمانيّة. كل هذا عائد في نظر الكاتب إلى أن هذه اللغة، قد احتفظت ببنى قبلية قديمة تمرست داخلها القبائل الجرمانية. وهذا ما قد يُفسّر الروح القتالية التي طبعت هذه القبائل البربرية، والتي أزهت الجيوش الرومانية الغازية في الحقب الغابرة: "جمع الجرمان بين الشّجاعة والقسوة والكرم، وعدم مراعاة أصول الجوار .. لعلّ أهم ما امتدحه تاكيتوس [يولبيوس (أوكيس) كورتيوس 56 ق.م 117 م سناتور ومؤرخ روماني من مؤلفاته الخطابة] فيهم هوكرمهم المطلق ومراعاتهم الشّديدة لرباط الزّوجية المقدس. كانت الأسرة هي وحدة النّظام الجرمانيّ حيث يمتّع الأب بسلطة مطلقة على زوجته وأولاده حقه في سلهم الحياة" (14) وغزاة آخرين أثناء حرب الثلاثين سنة.

2.4 غلبة اللّسانيّ على النّفسانيّ في اللغة الألمانيّة

كلّما تردد ارتيادك متأملا البعد اللّسانيّ في اللغة الألمانيّة، حُيّل لك أنّك نافذ في صميم الأشياء، حتّى لقلت أنت المتيم باللغة الألمانيّة أنّك لك خطوة عند الحقيقة. وما على المرء إلا العودة إلى الأرشيف النّازيّ، مراقبا حركات وسكنات وتغيّر ملامح أحوال هتلر وهولقي خطبه النّارية. فيتأكد من سلطان اللغة الألمانيّة. إنّ مصطلح lebensraum - لينسراوم - المستعمل أيّما استعمال من قبل رجال الدّعاية يُخال له أنّه يلج فضاء أصلايّ حقيقيّ، ما يُسفر عنه تأثير على الوجهة العامّة للفكر؛ فارتسام figuration غاية في الدّقة، يكاد يكون طفوليا، نرى قد طبع بجلاء طبوغرافيا روايات الأخوين "غريم" قد يكون لتقطيع المجال تأثير في تشكيل مجموع العلاقات البشرية في الفضاء اللّسانيّ الألمانيّ، كأنّ هذا الواقع - أعني الواقع اللّسانيّ - له الأفضليّة والألوية على البعد النّفسانيّ، وللإبانة أكثر على غلبة اللّسانيّ على النّفسانيّ، فإنّ الدّازين بوصفه أسّ التّفكير الفلسفيّ عند هيدجر، لا يتعدى كونه تعيينا من خلال وضع في الامتداد.. وبخصوص تواجد الدّازين في العالم، يقول ريكور: "كرّس هيدجر ما

يربوعن مائتي صفحة للوجود -في- العالم - ولعالمية العالم بشكل عام، وكأن من الضروري لنا أولاً أن نسمح لأنفسنا بأن يتخللنا معنى العالم المحيط بنا، قبل أن يتاح لنا أويكون لنا الحق في مواجهة بين الآنية (الدازين) " ⁽¹⁵⁾. من الألفاظ المفتاحية في الفلسفة الألمانية فعل - aufheben- (أوفين) الذي يفيد فعل الالتقاط، التقاط شيء من على الأرض والاحتفاظ به على مرأى الأعين ، علاوة على فعل reichen (رايشن) والذي يعني تقديم شيء ما للغير ببسط الذراع، وكما يلاحظ الفعل ذا طبيعة حسية ملموسة، وبحسب ما فهمت من كلام الكاتب قولدسميث، أن ما يترتب عن الخاصية المكانية الصريحة في اللغة الألمانية، تملك الشعور بالتهديد والخطر على الأذن الألمانية، ما انجر عنه ورود حالة استنفار دائمة ملازمة، تتجلى على المستوى اللغوي وفرة من الأفعال الوصفة لظاهرة الصوت (الضجيج)، وقد ذكر الكاتب عدداً من الأفعال تمثيلاً: rascheln (رايسكين) أي الحفيف، und säuseln (زاوزن) والذي يعني الهمس في اللغة العربية، و sirren (سيرن) أي الصفير، و knistern (كنيستارن) أي الفرقة، و knarren (كناران) والمقابل له في اللغة العربية الصرير، أو الاصطكاك. سماع هذه الأفعال قد يستدعي استحضار في ذهن القارئ لأجواء الطبيعة الحية والتي تسكنها أصوات كثيرة ومتنوعة، ما يجعلنا نعاين مرة أخرى ملازمة المكان للقول الهيدجري، بل يمكن الذهاب أكثر من ذلك في البيان إلى درجة القول أن التأمل الهيدجري يعتبر الإقليم جزءاً عضوياً، يستحيل الاستغناء عنه في سياق القول الهيدجري، وبالعودة إلى كتاب مارلين زرادر [فيلسوفة فرنسية من مواليد 1949، من مؤلفاتها الدين اللامفكر فيه - هيدجر والميراث الإبراهيمي] يتبين ذلك أكثر، ففي الصفحة 66، وتحديدًا في الفقرة الثانية من كتاب خصصته إلى فكر هيدجر، يبدأ إعرابها عن الشيء، بتساؤل عن الكيفية والتي بواسطتها يستعيد هيدجر استعارة النور أو الضوء الكلاسيكية، لأجل استخدامها، الاستخدام المخالف لما كان معتاداً عليه وكرسه العرف. فعادة، ما كان النور، مدمجاً إلى سالف (متقدم) مطلق، يُبرز شرط الإمكانية، غير أن هيدجر وهو يبحث عن سالف للنور (وقد وجدته في الأرض الطلق)، فإنه كان يرمى حينئذ جعل ممكناً شرط الإمكانية في ذات نفسها، وعليه وبمقتضى ما أبان عنه هيدجر من قبل وفي آن واحد، تستنتج مارلين زرادر، أن تبني الفكر الهيدجري الصورة الاستعارية، يجعله مُدَاك يتموقع، قطعاً قبل أو وراء الميتافيزيقا. فإذا كانت إشكالية النور ثابتة عبر كل تاريخ الفكر الغربي، وذلك ابتداءً من أفلاطون، والذي لا يُعقل عنده أن تكون الفكرة، خالية من الوضوح، فإن التأمل الهيدجري يصعد (يرتفع) خطوة إلى الوراء، أكيد عنده أن لا فكرة بدون وضوح يجعلها مرئية، ولكن لا يمكن أن يوجد وضوح، ولا مرئوية، من دون Lichtung، المنارة [Lichtung]. لا

يخفى أنّ هيدغر في جملة أعماله قد زواج على نحولطيف بين دالتين ثابيتين في اللفظة الألمانية: بين دلالة بصرية تعود إلى "النور" -Lichtung- من الجذر das Licht أي النور والضوء؛ ودلالة أخرى منزاحة قليلا إلى استعمال مجازي وطوبولوجي لدلالة النور، حيث تدل على الانقشاع، كما في عبارة: "das Dunkel Lichtete sich" انقشع الظلام ومنه "تجلّت الحقيقة". بيد أنّها مشتقة من الفعل Lichten الذي يعني قلّل وقلّص وخفّف، كما في عبارة: "lichtung" den Wald [قلّل] أظنه يقصد قلم] أشجار الغابة. بحيث إنّ "Lichtung" بحصر المعنى تشير إلى الفرجة أوالبقعة الجرداء والصّحّوأالبقعة المنقشعة في السّحاب. فهي تدل على الانجلاء والجلّاء والإجلاء والانكشاف وزوال الحجب. بذلك هي تعبير طوبولوجي عن مجال أوفسحة أوفضاء أوفرجة أوطاقة أوناظدة أوشرفة أومدى، وذلك من خلال جذر بصري مُزاح عن دلالاته الأصلية هي شرط إمكان ظهور الموجودات وشرط إمكان النظر إليها في آن. لكن نص 1927 لا يحتمل إلا المعنى الأول، أي معنى "المنارة" ولذلك علينا هنا أن نقرأ Lichtung بشكل "وجوداني" بوصفها تشير إلى بنية كينونة في الدّازين وليس في حقيقة الكينونة نفسها على خلاف النصوص ما بعد المنعرج فهي سوف تستعمل عين العبارة في معنى الجلاء أوالجلوة الذي يحترق ماهية الحقيقة في حصن تاريخ الكينونة، ومن ثمّ بعيدا عن أفق الفهم الوجوداني الذي سيأخذ في الاهتزاز منذ 1930⁽¹⁶⁾ أما الأستاذ بسكال دافيد - وهوأستاذ بإحدى الجامعات الفرنسية ومترجم من مواليد 10 فبراير 1956، من مؤلفاته مقال حول هيدجر واليهودية، الاسم والعدد- يرى أنه على خلاف ما هوظاهر، فإنّ لفظ Lichtung ليس من الجذر Licht (النور) ولكن من لفظ Leicht (light بالانكليزية يعني الخفيف) من الفعل lichten، بمعنى خفّف وأخلى وحرّر، والمقصود ب Lichtung اللفظ الوارد في الفقرة 28 في كتاب هيدجر العمدة الكينونة والزمان " يعني: أنّه في ذات نفسه مُنور بوصفه كينونة -في- العالم. وليس عبر كائن آخر، بل على نحوحيث إنّهُ هوذاته المنارة"⁽¹⁷⁾ لا يعود مطلقا إلى انخراط الدّازين في عرف أوتقليد متعلّق بعلم التّصوير الفوتوغرافي photologique- [علم يدرس تاريخ التّصوير الفوتوغرافي وتأثيراته على الأصعدة، الاجتماعية، والسّياسية، والأخلاقيّة]، ولا أيضا استبعاد الاستعارة الأفلاطونيّة للنور أوالضّوء، وبالعودة إلى نصّ هيدجر الصّادر سنة 1984 والموسوم ب: Zur Farge Nash der Bestimmung des Denken، نصّ قد ألف من قبل صاحبه سنة 1965، ونُقل إلى الفرنسيّة بعنوان l'affaire de la pensée - قضية الفكر- سنقرأ ما يفيد أنّ الحضور ذاته للكائن - الحاضر لا علاقة له البتة بالنور الذي يحيل إلى الوضوح، ولكن الحضور في ذات نفسه يحيل إلى das Lichte بمعنى Lichtung، هذا اللفظ الأخير إن دعانا إلى

التّفكر، يوضح بالاستعانة بمثال، على افتراض أننا نفكر فيه كفاية. إن كانت المنارة أي —lichtung في الغابة هي ما هي عليه، فليس بسبب الوضوح والتّور...، إنها موجودة حتى ليلاً، إنها تريد أن تقول: الغابة، في هذا المكان، تنفتح للسّائر. [ينبغي أن نشدد على أن هذا المعنى للمنارة، والمقدم من قبل الأستاذ بسكال دافيد، معنى مقترح من قبل هيدجر سنوات بعد سنة 1927، وهذا ما ذكره الأستاذ فتحي المسكيني في الإحالة التي جاء ذكرها أعلاه، إلّا أنّ بسكال دافيد يخرج بنتيجة مفادها، أن المقصود هنا، العودة بالتّور أو الضّوء إلى شرطه اللّامرئي، اللّامتعلق بالمعارضة بين التّور والضّلام، ولكن يتقدّمها بوصفه قلباً، ل " خفّة الكائن". بينما وفي السّياق نفسه يتبنّى السيّد أوفون الناقل الثالث لكتاب هيدجر إلى اللّغة الفرنسيّة، موقف الأستاذ فتحي المسكيني. فترجمة المنارة، الواردة في الكينونة والزّمان- على أنّها فرجة [فرجة في الغابة] سابق لأوانه، وقد حدّد الأستاذ أوفون قبول ترجمة المنارة بمعنى الفرجة، بسنة 1964، سنة صدور نصّ هيدجر الموسوم ب: " نهاية الفلسفة..". [

هناك تباين بين المجال الصّوتي الألمانيّ والمجال الصّوتيّ، فالشّدة الصّوتية أعلى في الفرنسيّة مقارنة بالألمانيّة، والحقل السّمعيّ أكثر شاسعة في الفرنسيّة مقارنة بالألمانيّة، ما يفرض على المتحدّث بالفرنسيّة بذل جهد تنفسيّ أكبر؛ وعن السّبب الذي يقف وراء هذا الاختلاف الصّوتيّ واللّسانيّ بين اللّغتين؛ الإجابة يحصرها الكاتب قولدسميث في عامل واحد، يراه وجهاً يكمن في إسهام الموسيقى اللّوثرية، أي تلك الموسيقى الدينيّة التي واكبت الإصلاح الديني، للمصلح مارتن لوثر، وليس فقط لعوامل سياسية، فهذه الجوقة الموسيقية يد في وحدة أفراد الشّعب الألمانيّ. تعود الموسيقى والغناء على وجه مخصوص إلى بُنى غاية في العمق في اللّغة، حيث يحتلّ الجسم أثناء الكلام حضوراً مكثّفاً في عالم المحي، أو عالم العيش، وقد انتبه إدموند هوسرل وبطريقته الخاصّة إلى هذا الأمر، فالفيلسوف قد استعمل ولأول مرة مصطلح Lebenswelt في مؤلفه الأخير: " أزمة العلوم الأوروبيّة والفنومينولوجيا الترنسندنتالية" ليعيّن موضوعاً للتوسّط أساسيّ، يمكن ترجمته إلى "عالم الحياة" "عالم حياتنا" "العالم اليوميّ"، كل هذه التّرجمات ليس بمقدورها أن تسدي لنا معروفاً، فتُعيننا في تعيين المعنى الحقيقيّ لهذا المصطلح، بل الأمر أخطر، قد تكون هذه التّرجمات مفضية إلى الخطأ، فقد توجي لنا التّرجمة أو التّرجمات المقترحة إلى أنّ هوسرل يعيد لصالحه التّحليل الهيدجري "للاّهنية"، أو التّجربة المشتركة وعليه، ينبغي وبمقتضى روح الفينومينولوجيا، التّنظر إلى المشكلة وفق طرح هوسرل هونفسه، دون التّنكر لما أتى به هيدجر وأرسطوفي الموضوع⁽¹⁸⁾ والجمل الواردة في كتاب هوسرل الشّارحة لمقصود المصطلح Lebenswelt هي: "العالم الواقعي الوحيد" و" المعطى واقعياً في

الإدراك" و"عالم التجربة الفعلية والممكنة" و"عالم عيشنا اليومي" (19) ونقرأ في الصفحة 108: "هذا العالم هو ما نجدّه أماناً كعالم لكلّ الوقائع المعروفة والمجهولة. إنّه إليه، إلى عالم التجربة الحدسيّة فعلياً، تنتهي الصّورة المكانية-الزّمانية مع كلّ الأشكال الجسديّة التي تندرج فيها، فيه نعيش نحن أنفسنا حسب كيفية وجودنا الحدسيّة الشّخصيّة" (20).

لا ينبغي أن يُفهم من هذا، أنّ المقصود عالم الأشياء، بمعزل عن التّواجد البشري؛ إنّ المقصود بالنّسبة للفينومينولوجي، عالم عادة ما يكون مزدرياً من قبل الفلاسفة، وهو عالم الدّوكسا، عالم الوقائع التي تُعطى لنا في التجربة البسيطة. إنّه عالم الذاتية. لا يقدر الكاتب من مقاومة نفسه، فيندفع معرباً عن انطباع يراه ملحاحاً، يستحيل الانفلات منه، هو أنّ هذا التّصور المكانيّ الرّاسخ في اللّغة الألمانيّة والملازم لها، تصور خام غفل، مكان بأربعة زوايا، وكأنّ المنظر به خشونة، مشيراً أنّ لفظنا نبيّ ومتوحش يقابلهما لفظ واحد في الألمانيّة هو Roh، وإمعاناً في الإبلاغ والإفصاح عن المكانية وتواجدها الملفت في اللّغة الألمانيّة، يدعونا الكاتب التّقرّب للتعرف على تطوّر الفنون الجميلة من العصر الوسيط إلى عصر النّهضة، حتّى نكتشف أنّ الفنّ الألمانيّ، فنّ الرّسم على وجه مخصوص، يتميّز بحدّة ووضوح زوايا الرسومات، كما قد يلاحظ المهتمّ ذلك في لوحات مارتن شونجور Martin Sebongauer [ولد سنة 1450، وتوفي سنة 1491، رسّام ونحات ألمانيّ] وألبرتش ديرر Albrecht Durer [ولد سنة 1471، وتوفي سنة 1528، رسّام ونحات ألمانيّ] عادة ما يكون الفضاء المرسوم، فضاء مُعَدَّب، منكّل به، نادراً ما يشاهد مسطحاً، بل دائماً ممتلئ ومعقّد، فضاء حسيّ، إن صحّت هذه الاستعارة، فضاء غريق، قد ارتبط بالطّفولة، ولكن فضاء على الدّوام مُعرّض إلى الخطر أو التهديد Unheimliche، كلمة قد تُترجم إلى اللّغة العربيّة "بالغربة المقلقة"، كما تبيّنها بطريقة أدبية قصص الأخوين "غريم"، وفي السّياق ذاته لفرويد عملاً موسوم بـ: "Das Unheimliche" "ترجم إلى اللغة الفرنسيّة من قبل ماري بونابرت ومارتي قدّم الكتاب وعلّق عليه فرانسوا سترن نقرأ في المقدمة ما يلي: "Das Unheimliche نعت مؤلف من لفظين: اللفظ الأوّل (بادئة) Un المُعَبّر عن الحرمان، اللفظ الثّاني Heimlich جذرها Heim الذي تشترك فيه العديد من الألفاظ، كلفظ Daheim الذي يفيد في السّكن Verheimlichen مكتوم عنه وDie Heimat وقد ترجم إلى مسقط الرّأس، الوطن، الأرض، الأم .. اللفظ Unheimlich مصطلح غير قابل للنقل إلى اللّغة الفرنسيّة، وإذا كان غير قابل للترجمة، فهو إذن تأويل" (21) ويكتب فرويد في نصّه "Unheimlich" أنّ "الكاتب أرنست تيودور أمادوس هوفمان [ولد سنة 1776، وتوفي سنة 1822، كاتب ألمانيّ، من مؤلفاته القط مور] لا يضاهيه كاتب

في استخدام Unheimlich، أي في الغرابة المقلقة، فكتابه الموسوم بـ فكتابه الموسوم بـ: "أكاسير الشيطان" يشتمل على إبالة أوحزمة من التيمات والتي يمكن أن ننسب أثر الغرابة المقلقة - أو المروعة أودات الطابع الشيطاني - للقصة⁽²²⁾ وقد يكون لهذا المكان المخضوضر، الأثر في بناء بعض عناصر اللغة. والاضرار لون يشكل حقيقة المخيال الألماني.. وهولون في الواقع للخارج، للمكان المحيط، يستلقي عليه الجسم.. والأدب الألماني ونتيجة لهذا الطابع المكاني الطأغي، قد تمكّن منه نوع من أنواع خيبات الأمل، أو قل نوع من أنواع النسطاولوجيا، يراها القارئ في صور الطّفولة الضّائعة والتي لن تعود القهقري، وقد يرجع السّبب في ذلك، إلى أنّ اللغة الألمانية مثلها مثل اللّغات الإنجليّة، يحركها هاجس الجنّة الضّائعة. يعتقد الكاتب قولدسميث، أنّ اللغة الألمانية ابتداء هي لغة جسد، ولكن ليس أي جسد، جسد مرتبط ومتعلّق فقط بإحداثياته ووظائفه، مع إلغاء وقد يقول قائل إخصاء للجانب الجنسي تدريجياً. والأدب الألماني في مجمله، لغته الجنسيّة ضحلة ومبتذلة، حتّى لا نكاد نقول أن لا وجود لأدب جنسي ألماني.

يعود الحضور اللافت للمكانيّة في اللغة الألمانيّة- في رأي الكاتب- إلى تواجد عدد كبير من البنى اللاشعورية وقد تجذّرت في اللغة الألمانيّة، مقارنة بباقي اللّغات الأوروبيّة؛ بالإضافة بالاهتمام الواضح لدى علماء ألمان بالفيلولوجية في القرن التّاسع عشر. تشتمل اللغة الألمانيّة على وقائع عدّة، لا سلطان للتاريخ عليها، ومن ثمة لا سلطان للحضارة، حتّى لأمكن للمرء القول، أنّ فرويد لم يتواجد عبثاً في الفضاء اللّساني الألمانيّ. وقد وجد النازيون ضالّتهم في المخزون اللّغوي وهم يوظفونه لأغراضهم الإيديولوجية الإقصائية، وتميّز القول الفلسفيّ الألمانيّ، وعلوكعبه في الفضاء الفلسفيّ عامّة، متأتي في جانب كبير منه إلى تدخل البنية النّحوية للألمانيّة، والتي ساهمت أيّما مساهمة في وجهة العبارة الفلسفيّة، ومنحت لها أساليب في التّعبير عن المعنى هائلة ومخبرة عن قوة العقل وجدارته؛ فمن مميزات الألمانية استعمال ما ندعوه بالأثر البعدي (المتأخر) بطريقة خاصّة، فلا مجال لفهم الجملة المركبة، سواء كانت علاقائية، أو ظرفية، أو أداتية، إلا بعد تمام الجملة. فالمعنى لا يتبلور في الذهن ويتضح إلا متى أبين عنه كلية، ولكي يعطي الكاتب لما يقول وجوداً متعيّناً يتلمسه القارئ، يُقدّم أمثلة توضيحية تعزّز القول، وتظهره وجهاً مقنعاً، فالجملة الواحدة تحتوي على جملة فرعية شارحة، لا يفصح عن معناها، إلا من خلال فعل محرّك، ينطلق من دائرة متّحدة المركز، قد تكون كبيرة للغاية وتشتمل على آلاف الاحتمالات، إلى أن تصل إلى معنى وحيد أخير، كان هو المراد، غير قابل للاختزال ومحدّد؛ مثال ذلك: الدّرجة المطلوبة من عند بائع الدّراجات، لم تستلم بعد. أو، أعلم أن هذا

الصَّبَاح، أخي قد نجا من حادث سير، عندما كان ذاهبا إلى المدرسة ممتطيا دراجته. ولتبيان ذلك أكثر، يُصعّد الكاتب العبارة من مقامها المتداول اليومي، إلى مقام العبارة الفلسفية، فينتقي من القول الهيدجري، التالي: "إنّ مفهوم الجرم الخلقي هو أيضا أقل ما يكون توضّحا من ناحية أنطولوجية، بحيث أن تفسيرات هذه الظاهرة التي أمكن لها أن تُصبح وأن تبقى سائدة هي تلك التي تضمّن في مفهومها فكرة التعرّض للعقاب بل أكثر من ذلك فكرة الاستدانة لدى" (23)

الذي أثار انتباهنا في قول هيدجر، المعتمد هنا سبيلا للتوضيح والبيان، ليس الجملة المركبة في اللغة الألمانية لا يستقيم معناها إلّا متى ذكرت كاملة غير منقوصة، إنّما شيء آخر قد يؤثر بشكل من الأشكال على الفهم المراد بلوغه في اللغة الأصلية للنص من قبل الفيلسوف، فكلمتا تضمّن وتحديد (كلمة تحديد لم يأت ذكرها في التّرجمتين الواردتين، في التّرجمة العربية ولا حتّى في ترجمة الفيلسوف إيمانويل مارتينو، وجاء ذكرها في ترجمة قولدسميث للفقرة، وأيضا في التّرجمة الحرة للسيد جاك أنفون، ولا أعلم هل وردت في الترجمة "الرسمية" للفيلسوف فرانسوا فيزان أم لا؟) جاء ذكرهما آخر الجملة في النسخة الأصلية.. كلّ النص قد شكّل أوزكّب من قضايا تُقرأ بمقتضى ما ألح إليه من قبل قولدسميث، حيث لا يتم الإفراج عن المعنى كلّية إلا تدرجا، عكس اللغة الفرنسية مثلا. والمشكل الذي يطرح حينئذ في تقدير الكاتب، أننا أمام حضور لوفرة هائلة من المفردات ، قد استخلصت من عدد ضئيل من الجذور، ما يُوفر للراغب من محاولات كثيرة لاستعمال كلّ التّركيبات الممكنة، وعليه، فليس يقينا التمييز دائما بين ما هو مرتبط بالفكر، وما هو مرتبط بالتّركيب اللّساني، إلى درجة أنّ هذه الوفرة من المفردات مع الهيئة النّحوية التي هي عليها اللغة الألمانية، تجعل الفكر مقودا بها. حتّى وإن لم يُستنجد بهذا الكم الهائل من المفردات في كلّ حين، إلّا أنّها تشكّل رصيда للفكر، وهي أشبه ما تكون بطاقة كامنة، ذخر متى دعت الحاجة إلى ذلك، وبعض مؤلفات هيدجر تزخر بهذا الكم الهائل من المفردات المؤهلة لمثل هذا التّوع من المهام، كمؤلفه الطّريق إلى اللغة بحسب المترجم والمحرر الدكتور إسماعيل المصدق ومؤلفه الذي يدور حول التّقنية.

إنّ اللغة الألمانية، كانت دائما رهن الإشارة، على أهبة الاستعداد، تستجيب لمتطلبات خيال الفيلسوف، وبالرغم من ذلك، ولعهد ليس بالبعيد، لا أحد استفاد من هذه الوضعية، فنهل من هذا المخزون، حتّى هيجل لم يسعفه الحظ وتحديدًا في كتابه فينومينولوجيا الرّوح من استغلال هذه الطّاقة الكامنة، فالَّذي يُسيّر وله القيادة ليست المعجمية إنّما الفكر.. ولكن وابتداء من العام 1830، حدث تغيرًا لصالح المعجمية، وقد يكون الفيلسوف شلين واحد من هؤلاء الرّواد الذين بثّوا روحا

ورومانسية في القول الفلسفي الألمانيّ المقولّب، ففي نظره ولمدّة طويلة "تفلسف الألمان بمعزل عن الآخرين.. حتى وصل بهم الأمر أن ابتعدوا عن الصّور الفكرية المعقولة".⁽²⁴⁾

وقبل أن يختم محاضرته الأولى، يصرّح الكاتب قولدسميث أنّ أوّل فيلسوف مكّن للجانب اللّغويّ وسلّطه على القول الفلسفيّ، وعدّه الماهية، هو الفيلسوف فيخته، لما تزخر به اللّغة الألمانية من إمكانيات معتبرة، فيما اختصّ بجانب تراكيب المفردات، فمن عدد قليل من الجذور، كما ألمعنا إليه سابقا، باعتبارها الوحدة الممكنة، الكثير من القضايا المركبة، تنبثق المفردات إنبثاقا، نتيجة تركيبات وتوليفات متنوعة، ويستشهد الكاتب بما أورده الفيلسوف فيخته في كتابه حول النظرية الفلسفية حول المعرفة، بكلمات متجانسة إلى حدّ ما، ولكن لكل كلمة معنى معيّن Grundsatz والتي تعني المبدأ والعقيدة (كروندزات) und Grund والتي تعني السّبب، und gründen بمعنى أقام وخلق.

وكلمة السّبب، أعني Der Grund ، هو المفهوم القاعدي السائد في مؤلّف هيدجر الموسوم بـ: "ما الميتافيزيقا"، يقول الدكتور إسماعيل المصدق مترجم النّص وناقله إلى اللّغة العربيّة، في المبتدأ: "يُقدم نص " ما الميتافيزيقا" نظرة عن تفكير "هايدجر" في الفترة التي نشر فيها مؤلّفه الأساسي " الكون والزمان" ويمكن اعتبار هذا النّص، سواء من حيث المضمون أو من حيث المنهج، امتدادا لتفكير هايدجر في ذلك المؤلّف.. " ما الميتافيزيقا " هونص المحاضرة الافتتاحية التي ألّفها هايدجر يوم 24 يوليو [جويلية] 1929 في جامعة فرايبورج، بمناسبة حصوله على منصب الأستاذية هناك، وتجلّى أهمية هذه المحاضرة، في أنّ هايدجر سيعود إلّهما في عدد من كتاباته اللاحقة لتوضيح أفكارها ويُفسّرها ويُدافع عنها ضد بعض الانتقادات التي ترجع في نظره إلى سوء فهمها"⁽²⁵⁾ ليتساءل عقب ذلك، وقد تسرّب إلي تساؤله بعض حيرة مقلقة، إن صحّت العبارة، وعكست بحق شعورا يتملّك النّفس البشرية حيناً، عن كيف لقول هيدجري يهوى صوب القاع، فهل اللّغة هي المدير المتحكّمة، أم الفيلسوف هو الذي يفكر؟ لماذا فيلسوف مثل هيدجر لا ينفك من التأكيد وبشدة على الاستثناء الألمانيّ، ويعطي الأهمية الكبرى لما هو خاص..؟

اللغة الألمانية بثّت في أرضها فخاخ، حتّى استحالت الكلمة وتوقف اللسان عن التّصريح، وقد يكون هذا الوضع المفارق هو الذي أراد هيدجر الارتقاء إليه، وضع يُحرّم فيه الفيلسوف اللّغة، والسؤال المناسب في نظر الكاتب والذي ينبغي طرحه، سؤال معرفة، هو كيف تمّ وفي لحظة تاريخيّة وصل فكر مثل فكر هيدجر، بالتّأزيم، هل حدث هذا "القران" تحت وطأة داع عرضي، (وهذه مشكلة على كلّ حال) أم هناك شيء أكثر عمقا يجمع بينهما، فيربطهما بوثق غليظ ..

5. خاتمة:

يعتقد الأديب قولدسميث أنّ هناك محدّدين اثنين عملا على تثبيت المكانية في الألمانية، الأول أصفة بالعامل الطبيعي، الذي لا دخل للإرادة في تشكّله، وهو العامل اللاشعوريّ الجمعيّ، فالكثير من البنى اللاشعورية متجذّرة في اللّغة الألمانية، مقارنة بباقي اللّغات الأوروبيّة، العامل الثّاني متعلّق بالإرادة الإنسانية، ففي القرن الثّاسع عشر انشغل علماء ألمان بالمسائل اللّغوية، والتي تنضوي تحت ما يُسمى بالفيلولوجيا.

تزخر اللّغة الألمانية بكم هائل من المفردات، قد استخلصت من عدد قليل من الجذور، ما يجعل الراغب في الإعراب التّواجد في وضع مريح يسمح له بأن يختار ما شاء من التّراكيب، لذا، ليس يقينا دائما التّمييز بين ما هو متعلّق بالفكر، وما هو متعلّق بالتّركيب اللّسانيّ، إلى درجة تصير هذه الوفرة المتكثّرة من المفردات والتي قد بدت على هيئة نحوية مخصصة، الموجهة للفكر، خزّانا ينتظر من يستثمره ويوظفه لصالحه. وهذا ما سعى هيدجر على استغلاله والاستفادة منه، ونسجه منه نسقا فكريا، يُسائر كرها، ربما، اللّحظة التّاريخية التي حضنته...

6. قائمة المراجع:

- 1- هيدجر، مارتن ، الكينونة والزمان، ترجمة وتقديم وتعليق: د. فنيح المسكيني، مراجعة إساعيل المصدق، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت. لبنان، الطبعة الأولى. سبتمبر 2012. ص 209.
- 2 Goldschmidt, G.A. (2005). Heidegger et la langue Allemande¹. Retired from <http://classiques.uqac.ca>.
- 3- الدكتور مبارك مبارك، معجم المصطلحات الألسنية فرنسي إنكليزي عربي، دار الفكر اللبناني والنشر، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى 1995. ص 235.
- 4- Vandevelde Rouglade Agnès, Victor Klemperer, LTI, La langue du III Reich. Carnet d'un philologue, dans revue interrogations ?, n13 le retour aux enquêtes decembre 2011., p192.
- 5- Beusoleil, J.R (1988). Jean Grondin, le tournant dans la pensée de Martin Heidegger, collection Épiméthée. Essais philosophique, Paris, PUF , 1987, 137 pages philosophiques 15 (1), 191-209.
- 6- جوته، يوهان بولفجانج، تاسو، ترجمة وتقديم عبدا لغفار مكاوي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، 2009، ص 17.
- 7- هيغل، فلهايم، فنومينولوجيا الرّوح، ترجمة د ناجي القوّلي، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى. بيروت. لبنان، 2006. ص 13.
- 8- هيغل، فلهايم، موسوعة العلوم الفلسفية، ترجمة وتقديم وتعليق د. إمام عبد الفتاح إمام، الناشر دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، بيروت. لبنان. 2007. ص 63.
- 9- فرويد، سيجمند ، الأنا والهو، بإشراف الدكتور محمد عثمان نجاتي، دار الشروق. الطبعة الرابعة. مصر، 1982. ص 42.
- 10- مبارك، مبارك، معجم المصطلحات الألسنية فرنسي إنكليزي عربي، دار الفكر اللبناني والنشر، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى 1995. ص 275.
- 11- مبارك، مبارك، معجم المصطلحات الألسنية فرنسي إنكليزي عربي، دار الفكر اللبناني والنشر، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى 1995. ص 71.
- 12- السّراج، محمد علي، الباب في قواعد اللغة وآلات الأدب، المحقق خير الدين شمسي باشا، دار الفكر. الطبعة الأولى..دمشق. سورية، 1982. ص 114.
- 13- هيدجر، مارتن ، الكينونة والزمان، ترجمة وتقديم وتعليق: د. فنيح المسكيني، مراجعة إساعيل المصدق، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت. لبنان، الطبعة الأولى. سبتمبر 2012. ص 208 .
- 14- السّراج، محمد علي، الباب في قواعد اللغة وآلات الأدب، المحقق خير الدين شمسي باشا، دار الفكر. الطبعة الأولى..دمشق. سورية، 1982. ص 151، 152 .

- 15- ريكور، بول، الزمان والسرد الزمان المروي، الجزء الثالث، ترجمة سعيد الغاني، راجعه عن الفرنسية الدكتور جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 2006، ص 92 .
- 16- هيدجر، مارتن ، الكينونة والزمان، ترجمة وتقديم وتعليق: د. فتحي المسكيني، مراجعة إسماعيل المصدق، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت. لبنان، الطبعة الأولى. سبتمبر 2012، ص. 263
- 17- هيدجر، مارتن ، الكينونة والزمان، ترجمة وتقديم وتعليق: د. فتحي المسكيني، مراجعة إسماعيل المصدق، دار الكتاب الجديد المتحدة بيروت. لبنان، الطبعة الأولى. سبتمبر 2012، ص. 263
- 18 - Deelève, H. (1971) « Lebenswelt » selon Husserl. Laval théologique et philosophique 27(2), 151-161. <https://doi.org/7202/1020239ar>
- 19- هوسرل ، إدموند، أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترسندنالية، ترجمة د. إسماعيل المصدق، مراجعة د. جورج كنورة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت. لبنان، الطبعة الأولى، تموز 2008، ص 104 .
- 20 - هوسرل ، إدموند، أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترسندنالية، ترجمة د. إسماعيل المصدق، مراجعة د. جورج كنورة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت. لبنان، الطبعة الأولى، تموز 2008، ص 108 .
- 21 – Freud, Sigmund, L'inquiétante étrangeté, (Das Inheimlich), traduction de l'Allemand par Marie Bonaparte et Mme E. Marty, les classiques des sciences sociales Chicoutoumi, Québec, 1933, <http://classiques.uqac.ca/>, p 07.
- 22- Freud, Sigmund, L'inquiétante étrangeté, (Das Inheimlich), traduction de l'Allemand par Marie Bonaparte et Mme E. Marty, les classiques des sciences sociales Chicoutoumi, Québec, 1933, <http://classiques.uqac.ca/>, p19.
- 23- هيدجر، مارتن ، الكينونة والزمان، ترجمة وتقديم وتعليق: د. فتحي المسكيني، مراجعة إسماعيل المصدق، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت. لبنان، الطبعة الأولى. سبتمبر 2012، ص 501.
- 24 - Jugement de M. Schelling sur la philosophie de M. Cousin, traduit par J. Willm de l'Allemand et précédé d'un essai sur la nationalité des philosophes, chez G. levrault, rue de la harpe, n°81, Paris, 1835 , p 20.
- 25 – هايدجر، مارتن، كتابات أساسية، الجزء الثاني، ترجمة وتحرير إسماعيل المصدق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة. مصر، ط 1، 2003، ص 09 .